التصوف الافلاطوني اتحاد ام تسامي؟

The Platonic Sufism: Union or Sublimation

Lect. Hussein Hadi م.د حسين هادي [1]

الملخص

ما أراده افلاطون حمله عشقه لسقراط أن يتخفى به، ويمنحه ذاته وهويته، ويتلاشى هو في نسبه وفي دمه، عن تلك الهوامش التي لم تنالها شـــاعرية أفلاطون، حاول البعض ان يبحث عن ســـقراط، ما قبل الافلاطوني، يجد أن يجد هفوة او حيّزا يكتشف سقراط مختبئاً فيه. لاجل ذلك كتب هذا البحث.

الكلمات المفتاحية: سقراط، افلاطون، الحب.

Abstract

Plato's adoration of Socrates lead him to hide behind his character. Plato bestowed his identity and self on Socrates while he maintained flesh and blood for himself. Some attempted to look for Socrates in between Plato's lines, hoping to discover Socrates. This study aims at revealing it.

Keywords: Plato, Socrates, Love.

المقدمة

منذ أيام الدراسة الأولية في قسم الفلسفة شغلتنا مسألة قلّما أشارت إليها تواريخ الفلسفة العامة: كيف نستطيع أن نميّز ونستخلص شخصية وفلسفة سقراط عن تأثيرات أفلاطون التي طبع بها فكر وفلسفة وشخص سقراط الحقيقي!

١- جامعة بغداد/ كلية الأداب.

كيف زيّف أفلاطون حقيقة سقراط؟. لماذا تحدّث بالنيابة عنه وألبسه أفكاره ومعتقداته، وأرسى قواعد فلسفته؟. أسئلةٌ كثيرة ترددت في أذهاننا وقتذاك ومازالت غيرها تعاود الظهور كلّما سنحت لها الفرصة بذلك.

ما هو عام في سير أكثر العظماء إن لم يكن كلّهم، أن نجد هناك منْ يتحدّث بإسمهم، ويتكلّم على ألسنتهم، ويمنحهم أفكاره ومعتقداته، يلبسهم إقنعته، ويضفي عليهم سمات عصره وزمنه وعقائده. يذيبهم في فكره ومقالاته.

هل كان العظماء –إذن– دمى وأشباح يحرّكها مخرج بارع بيديه، وهو يستتر بعيداً عن الأعين وراء الستار؟. هل كان العظماء مجرّد أقنعة يتحرّك الممثلون فوق خشبة المسرح؟. هل حقّاً كانوا ضلالاً تنعكس على الجدران، ويراها الناس حقيقةً– كما تصوّر ذلك أفلاطون في كهفه؟. كم من الأحاديث والمقالات والأقاصيص وضعها المخرجون والقصاصون ونسبوها إلى العظماء!!. وهل كان العظماء أشباحاً ودمى وضلالاً تنعكس على الجدار؟

تلك هي قصة سقراط إذن، ومازاد في الطين بلّةً، أنّ مخرجنا الذي تخبأ وراء النصّ، أفلاطون الحكيم، كان شاعراً غنائياً عظيماً. ومن النادر أن تبقى الحقيقة بين يدي الشاعر، حقيقةً. إنّه في جميع الأحوال لن تبقى حقيقة، ستذوب، وتتموّج، وتنصهر، وتنكسر على ضفاف الشعر.

وفي المحاورات التي أبدعها قلم أفلاطون، لم تعد لسقراط ضفاف أو حدود، تضع حدود هويته التاريخية، وتمنعه من أن ينسكب قطرة إثر قطر في دم أفلاطون وفكره.

ذاك ما أراده أفلاطون بالضبط. حمله عشقه لسقراط أن يتخفّى به، ويمنحه ذاته وهويته، ويتلاشى هو في نسبه وفي دمه.

عن تلك الهوامش التي لم تنالها شاعرية أفلاطون، حاول البعض أن يبحث عن سقراط، ماقبل الإفلاطوني، يجد أن يجد هفوة أو حيّزاً يكتشف سقراط مختبئاً فيه. لأجلّ ذلك كتبت هذا البحث، عسى أن يقرأه طالب علم أو معرفة، مع التقدير.

كيف نجد سقراط؟

إنّ الدعوة التي نجدها في فلسفة سقراط والتي ترشدنا إلى حياة الإعتدال والوسطية، قد نالت رضا وموافقة الكثير من الفلاسفة والمفكرين، وأسست لقاعدة ذهبية ومعيار عملياتي لتقييم الأهواء، وتبصير الغرائز. وبها يمكن تثبيت الذات على ركائز عميقة وسط بحر متحرك من الرمال.

النقطة الأساسية التي ننطلق منها كي نعثر على المعالم التي تشكّل جوهر وحقيقة الذات التي نبحث عنها في صخب الحواس.

نبدأ من هنا أولاً، أي أن نجد أنفسنا، التائهة في الأهواء والرغبات، وأن نعثر على أنفسنا المضطربة بفوضى التغيرات التي تنهمر حولنا مثل ماء النهر والذي لايتوقف تيّاره أبداً.

دون أن نجد لإ نفسنا مكاناً هادئاً ومطمئناً، لن نستطيع أن نعلم شيئاً مما يتحرّك حولنا، ولن نفهم شيئاً حتى لو إمتلكنا العالم كلّه.

الدعوة التي نهض بها سقراط، في جوهرها دعوةٌ لإكتشاف الذات، وإستعادة العقل قبل أن يتحوّل إلى أداة إستثمار بيد فئات المستثمرين والمستعبدين لذات الإنسان.

لابد أن يكون لدينا ثابتاً نسبياً –على الأقل– من خلاله نرى العالم. وأن نتحرر من سيولة الأحداث، وإنهمارات السطوح، وتآكل الجروف تحت أقدامنا وتساقطها المتتابع؛ ذلك هو الشرط الرئيسي لحياة الإعتدال، ونهضة التعقل، بما يولد من شعور إتجاه ذاتنا وإتجاه العالم الذي نحن مسؤولون عنه أيضاً.

إنّ الرؤية الرئيسية التي ينطلق منها سقراط في فهم ووعي الشعور بالحب الذي يربطنا بالأخرين إرتباطاً مصيرياً –وفقاً لنظرية الإعتدال– تبدو واضحة في قدرة الإرادة المستبصرة على فرملة الشهوات والتحكّم بإضطراب الأهواء وعصفها.

لم تكن دعوة سقراط تحمل في طياتها أيّ هاجس ديني أو عقائدي، بل كانت دعوة حرّة ليقظة العقل، وإستعادة المعقول الفلسفي من أوهام الأقوال الشائعة، وتثبيت نواة راسخة للعقل، في كلّ إختيارتنا القادمة بما فيها خيارتنا العاطفية في الحب إتجاه الأخرين، التي تنجذب إليهم أنفسنا بما فيهم من قوّة جاذبية وأسر.

تنطوي فكرة سقراط في حياة الإعتدال والوسطية على أساسيات المباديء العامة للنحلة الفيثاغورية والتي ظلّ سقراط وفيّاً لها في السرّ والعلن. تلك المباديء التي لا تتيح لإتباعها حياة البذخ والإسراف والإنغماس، بل تفرض عليهم قيماً جديدة، وأخلاقاً سلوكية ملتزمة، يجهلها اليونان، وتتنكر لها قيمهم الإجتماعية والطبقية المستعبدة لرقابهم.

فقد إتبع فيثاغورس (عاش في القرن السادس قبل الميلاد) المعلّم الأول لسقراط ولإتباعه من الفلاسفة المشائيين، تعليمات صارمة تفرض على تلاميذه من كلا الجنسين مشروطيات الحياة الفاضلة، والتي عادة ما تكتفي بالضرورات القصوى التي يتطلبها إستمرار الحياة في داخلنا.

قيم الفلسفة الفيثاغورية التي أصبحت أساساً رئيسياً في بنود مدرسة كروتونا التي أسسها فيثاغورس (جنوب إيطاليا)، كانت شروطاً صارمة لتحقيق نهضة أخلاقية وإصلاحية وفلسفية جادة في بلاد اليونان؛ من هنا فقد إنتخب فيثاغورس أتباعه من الأقوياء من أصحاب الإرادة والشكيمة العالية من الجنسين كليهما، والذين كان لهم الإستعداد لرفض قيم وسلوكيات حياة الرذيلة والكذب والشهوة المتفشيّة في عموم بلاد اليونان.

نجد أنَّ حياة الجسد وما تترتب عليه حياة الشهوة والرغبة، تتفق –تماماً– مع ميول الطبيعة داخل أنفسنا؛ ذلك أنها تنبع من صميم حركة وإنحدار الطبيعة بذاتها، والتي سرعان ما تجرفنا معها بواسطة تيّارتها الصادمة والعنيفة، وبما تمليه علينا حياة الدعة والشهوة، وبما تغرينا به أنانياتنا البدائية الجشعة.

الفلسفة التي جاء بها فيثاغورس من الشرق وهو يتجوّل متغرباً في مصر وبابل والهند والتي أمضى فيها أكثر سنوات عمره ليتعلم بها، لم تكن تلك الفلسفة إلّا دعوّة منظّمة لوقف وحجز تدهور حركة الطبيعة الشهوانية داخل المجتمع اليوناني، وداخل أنفسنا، ولم تكن في حقيقتها: ((إلّا حركة إصلاحية كبرى،

يقضي بواسطتها على الشلل الذي أصاب التفكير اليوناني... خصوصاً بعد سقوط المدن اليونانية تحت السيطرة الفارسية))[٢].

الفلسفة هي فن الإرادة القادر على كبح شهواتنا، وفضح أساليب الأنا داخل أنفسنا. الفلسفة هي سدٌّ حاجز ومانع، لتدهور قيمنا الإخلاقية، وإصلاح ذواتنا الشهوانية.

فالدعوة التي بشّر بها سقراط في ساحات أثينا وأنديتها، كانت دعوة -أيضاً- لإصلاح مفهوم الحب، وتحرير الجسد من قيود وعبودية الشهوة السدومية.

عند سقراط وأسلافه الفيثاغوريين، لم يعد الحب لذّة منغمسة في الجسد، ومتشبثة بإمتلاك الجسد الجميل، كما هو الحال عند أبيقورس أو عند غيره من الشهوانيين المنغمسين، وبالضد من تلك العقيدة الأبيقورية، لايعني مفهوم الحب عند سقراط إلّا برزخاً من برازخ التسامي والتعالي على نداءات وخورات الطبيعة داخلنا.

الحب الذي طلبه سقراط في فلسفته، قوّة التسامي، والتشامخ والقطيعة مع الطبيعة التي تجذبنا بقوّة وإصرار إلى مراكز التساقط والجذب والتدهور.

يبدو سقراط مصرّاً على مقاومة نداءات الجسد السدومي الشهواني، الذي لا يلبث، يحيك لنا شباك الإغراءات بما يقدمه لنا من فتنة الجسد، وإغراءات الشهوة، وإستغاثات الأنا الجامحة في إمتلاك الجسد الجميل.

لقد أدرك سقراط بحكمته الفيثاغوريّة أن الرغبة الجامحة لا تعني في نهاية المطاف إلّا إستنفاذ طاقة الحياة الثمينة وتبديدها، وما يترتب على ذلك من موت القلب وبلادة العقل، وهشاشة الحواس.

يمكن أن نجد أساسيات الدعوة إلى الإعتدال والتبصّر في جذور فكرة النفس عند الفيثاغوريين، هناك تبدو دعوة سقراط واضحة وجليّة، ف: ((النفس حقيقة إلهيّة مستقلّة عن الجسد كلّ الإستقلال، بل تعدّ وجودها فيه بمثابة سجن تحاول الخلاص منه. ويذكر أفلاطون هذه النظرية في محاورة فيدون وينسبها إلى سيمياس الطيبي تلميذ فيلولاوس. ومؤدى هذه النظرية، أن النفس أشبه بنغم القيثارة، لأن الجسم بمثابة القيثارة، فيه من الحرارة والبرودة ما في أوتار القيثارة من غليظ ورفيع الأصوات ومن توازن هذه الأضداد يحدث النغم، فأن أضل التوازن بينها تلاشى النغم وأصاب النفس الموت حتى قبل أن يبلى الجسد))[٣].

طغيان إحدى العناصر التي تشكل مكونات النفس الأساسية ينتهي بفشل النفس، وإضطراب في وظائفها الكلية وبالتالي إنخذالها أن تنجز غايتها في وجودها الأرضي في الحياة العاقلة والراشدة.

وفكرة توازن عناصر النفس قد ترجع في جذورها إلى الطبيب الفيثاغوري أبقراط الكيوسي وهو صاحب فكرة توازن عناصر البدن وإستقامتها كي تستقيم صحة البدن والنفس.

وسقراط ما قبل الإفلاطوني أمن بها وتفانى لتطبيقاتها العملية في ميدان الصحة الأخلاقية. وكان هو بالذات إنموذجاً عملياً لإستيعابها في سلوكه اليومي، فلم نره مسرفاً في شراب أو أكل أو لهو، ولم نجده

٢- د. مصطفى غالب، فيثاغورس، مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٧ م، ص٤٧.

٣- د. أميرة حلمي مطر، الفلسفة اليونانية، تاريخها ومشكلاتها، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٨ م، ص٨٠.

مستغرقاً في شهوة أو ممازحة، بل كان نموذجاً للإعتدال في أقواله أو أفعاله. كان وفيّاً لتعاليم فيثاغورس الخالدة.

((إنّ الإنسان العادل والنقي والخيّر هو صديق الألهة، والرجل الظالم والسيء... عكس ذلك بالمطلق. والرجال كلّهم ممتلئون بالأمال... إنّ الأخيار كونهم أصدقاء الألهة، يمتلكون الصورة الحقيقية... والأشرار يمتلكون الصورة الزائفة... يمتلكون الملذّات مرسومة في أوهامهم وتخيلاتهم... والأشرار يفرحون بالملذات الزائفة))[٤].

هذا ما كان يؤكد عليه سقراط دائماً: ((إنّ المعتدلين يكبحون جماح شهواتهم، متبعين قول الإنسان الحكيم... لكن الإفراط في اللذّة يسيطر على عقول الأغبياء، ويصبح الأغبياء والفاسقون والعبثيون مجانين، ويجعلهم الأفراط في اللذة يصرخون عالياً...))[٥].

فمن أين تأتى لليونان أولئك المنهمكون بحياة الغرائز والشهوات، والمحبون للحرب، النهمون بعشق الجسد، من أين تأتى لهم أن يصخيوا السمع لسقراط، وهو يدعوهم لحياة الفضيلة، وينشر بينهم عقيدة العقل، ويتحدث لهم بلغة الفلسفة التي لا تتلاءم مع طبائعم وغرائزهم البحرية الجامحة؟.

إنّ الروح التي تحدّث بها سقراط، إعتقد أكثر أهل اليونان إنّها لغة الوحي، قد ألقتها الآلهة على لسان سقراط، أو لعلّها روح غريبة أصابت سقراط، وجعلته يتكلّم بمقالات لم يألفها اليونان من قبل، مع ذلك لا يمكن لسقراط أو لأي فيلسوف أخر يدعو الناس للتعقل ونبذ الشهوات التي إعتاد عليها القوم، أن ينجو بنفسه.

ذلك يفسر لنا لماذا إضطهدت أثينا سقراط وقادته إلى محاكمة فاشية باطلة حكمت عليه بالموت؟. وهو أيضاً ما يلقي بالضوء على المصير المأساوي الذي آلت إليه مدرسة فيثاغورس في كروتونا، وكيف إنتهى مصير مدرسة الحكمة الأولى في بلاد اليونان بالحرق والقتل والتشريد. وكان فيثاغورس قد أدرك بحنكته المصير الذي يتربصه، فهاجر متخفّياً قبل أن يقتله القوم: ((أما أتباعه الذين بقوا في كروتونا فقد راحوا ضحية مؤامرة دبّرها فيلون وحزبه حيث أحرقوهم أحياءً وهم مجتمعون في منزل ميلوmilo الرياضي، فماتوا جميعاً بإستثناء أرخبيوس وليسس التارنتي الذين فرّا إلى طيبة بالقرب من أثينا))[٦].

ومن قبل كان فيثاغورس قد هجر وطنه في جزيرة ساموس، أقصى الشرق من بلاد اليونان: ((فراراً من طغيان بوليقراطيس (٥٣٥ – ٥١٥ ق. م)، أو ربّما خوفاً من غزو الفرس، أو لعلّه يكون قد نُفي من البلاد كما كانت العادة في ذلك الزمان بالنسبة للمفكرين الأحرار))[٧].

٤– أفلاطون، محاورات أفلاطون، محاكمة سقراط، ترجمها عن النص اليوناني، د. عزّت قرني، دارقباء للطباعة والنشر، ط٢، القاهرة، ٢٠٠١ م، ص٢٠.، ص ٢٦٩.

٥– أفلاطون، المحاورات، فيلبوس، ص٣٣٩.

٦– د. مصطفى سامي النشار، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، ج١، دارقباء للطباعة والنشر، القاهرة أ ١٩٩٨ م، ص١٥٣.

٧– مصطفى سامي النشار، مصدره السابق، ص١٥٠.

لا ريب أن أفكار وشخصية سقراط قد أثارت الريبة في نفوس الطبقات العليا في المجتمع اليوناني، ومنذ ذلك الحين أخذت تعد العدّة للنيل منه، أما سقراط فقد مضى لغرضه غير مبالٍ بخصومه الذين أخذوا يزدادون حنقاً به.

إنَّ أفكار هذا الرجل التي تدعو إلى الحكمة والتعقل والتبصّر ونبذ الشهوات، وتدعو من طرف خفي إلى العدل وإنصاف الضعفاء والمسحوقين، غير مرحبٍ بها –تماماً– لدى الطبقات الإجتماعية المتنفذة، والتي تؤمن بالقوّة، وتمجّد الشهوة، وتبارك الرذيلة والظلم، التي تعدها من سمات الرجل القوي. وتلك القيم قد توارثها المجتع اليوناني عن القبائل الدوريّة المتوحشة والمحبّة لسفك الدم.

فليس غريباً وفقاً لتلك الحقائق أن يواجه سقراط تهماً خطيرة، في نتائجها. ومن جملة تلك التهم، أهانة آلهة أثينا، وعبادة آلهة جديدة لا يعرفها اليونان، وإزدراء قواعد الدين وقيمه العليا.

((إننا لانجد إشارة عند أرستوفانيز (في مسرحية السحب) إلى الدايمون السقراطي... الذي يتمثل له على شكل هاتف باطني، والذي يشير إليه الإدعاء حينما يضيف إتهاماً ثالثاً، وهو إحلال آلهة جديدة محل آلهة أثينا... إنّ سقراط... وباء خطير ينبغي التخلّص منه بأي ثمن. وهذا يؤكد قول سقراط: عندما قلت لكم من قبل إنّ كثيرين يكنون لي أحقاداً عميقة فإعلموا إني قلت لكم الحقيقة))[٨].

سقراط لم يكن مبالياً بتلك التهم الباطلة التي لا أساس لها من الصحة، وكلّ دعوته تستند إلى إنصاف الطبقات الدنيا والتي أراد لها أن تنال تعليماً مساوياً لغيرها؛ هذا ماوجده ملائما في دعوات السوفسطائية الجريئة في النزول بالفلسفة من برجها العالي إلى الشعب.

لم يعد مقبولاً ولا مناسباً، أن تبقى الفلسفة حكراً وراثياً على أبناء الطبقات العليا، أو النخبة الإجتماعية النبيلة. كما أن محاولة فيثاغورس تعليم شريحة أو نخبة محددة تخضع لقواعد نحلة فلسفية صارمة، قد مضى زمنه أيضاً؛ لذا فمنذ البدء إكتشف سقراط الروح الثورية التي إنطوت عليه الدعوة السوفسطائية في تعليم الجماهير أحاديث الفلسفة وفن الخطاب.

لقد استمر سقراط في تعليم أهل أثينا مباديء الفلسفة التي وجد أنّها كافية لتهذيب الطباع، وترويض الغرائز، وإيقاظ العقل من سباته الذي طال ليله. وبالفعل بدأ حشد كبير من مختلف أصقاع اليونان يقصدون أثينا لكي يستمعوا لمباديء المعلم الأول الذي ألُهم فن القول، وحكمة الآلهة.

ومما له دلالة كبيرة هنا أن نلاحظ أن أكثر تلامذة سقراط ليسوا من أبناء وطنه أثينا، بل هم أجانب عليها، إستقطبهم سقراط بحكمته.

وفي محاورة فيدون: ((يذكر أفلاطون بضعة عشر نفرّاً ممن حضروا يوم إعدام سقراط. وهم خاصة تلاميذه أو حلقته، ومعظمهم من الأجانب عن أثينا، وفيهم أقليدس الميغاري. ومن هؤلاء الأصحاب من أنشأ مدارساً أخلاقية فيما بعد مثل أنتنستيس وأرستيبوس، وإتجهت وجهة أخلاقية محضة. وكان بينهم سمياس وقيبيس وميدوناس وهم فيثاغوريون وتلاميذ فيلولاوس المشهور... ولم يكد ينفذ حكم الإعدام في سقراط حتى هجر أفلاطون أثينا))[٩].

٨– أفلاطون، محاكمة سقراط، ص٨٢.

٩– د. أحمد فؤاد الأهواني، أفلاطون، دار المعارف، ط٤، القاهرة، ص٣٥.

إننا نستطرد بإيراد تلك النصوص والتي قد تحملنا بعيداً عن الغرض؛ لكي نبين أن الدرس الفلسفي كان درساً وسيبقى درساً، غير مرغوب فيه ليس لدى اليونان وحسب، بل لدى جميع البلدان على حدّ سواء.

فالسلطة مهما تكن طبيعتها حتى وإن كانت من طبيعة ديمقراطية، فإنّها لا تحبّذ الفلسفة؛ فهي تريد أن يبقى الناس رهن أشارتها، ورهن لطاعتها. وإثارة قضايا الوعي في عقول ومدارك العامة، أمرٌ ليس محمود العواقب، ولا مأمون الجوانب والنتائج.

الجماهير لا يمكن إيقاظها بالوعي الفلسفي أو تسيرها به؛ ذلك ما يشكّل خطراً في بناء أي مجتمع، وبالتالي يهدد بقاء أي سلطة. والنظم الإجتماعية والسياسية، تنهض وتتشيد أركانها بواسطة نظم القوّة، وما تفرضه من قوانين الطاعة والإنقياد. ومن طبيعة السلطة أن تتحالف مع طبقات رجال الدين الذين يقدمون أكبر الخدمات للسلطات السياسية والإجتماعية بما يمتلكون من قدرات فذّة في تخدير عقول الجماهير وتذويبها بواسطة قوّة وتأثير الأسطورة.

يبدو لي أن سقراط لم يكن يدرك كلّ ذلك، ولم يحط به علماً أو وعياً في ذلك الزمن المبكر من تاريخ الوعي الفلسفي الناشيء في بلاد اليونان، وبالتالي فإنّه لم يلمح الخطر الحقيقي المحدق به، على الرغم من أنّه يعلم جيداّ ما حلّ بروتوغوراس (القرن الخامس قبل الميلاد) من مصير بائس على يدّ أهل أثينا، وكيف أحُرقت كتبه علناً، وكيف ولّى هرباً، حتى أدركه الموت غرقاً في عرض البحر!!.

تلك الدروس لم تكن كافية لثني سقراط عن عزمه، ولم تكن كافية لكسر قوّة إرادته وتصميمه.

تلك إرادة المفكر الحرّ الذي لا يخشى الضغوط ولا يهاب الأخطار. وقد مضى لهدفه: ((يعارض المجتمع كلّه وكلّ سلطاته الدينية... ومن هنا كان لابد من إصطدامه بالسلطة السياسية؛ لأن الدين من شأن الدولة نفسها))[١٠].

إنّ ما اكتشفه سقراط في أثينا، وأولاه كامل عزمه، أن يتحدث مع الناس البسطاء الذين يلتقي بهم في الميادين العامة والمناسبات. تعلّم ذلك النهج الجديد من السوفسطائيين الذين كانوا يجيبون شوارع أثينا، ويلقون بمواعظهم لكلّ من يرغب بذلك.

والسوفساطئيون أولّ من فتح أبواب الفلسفة أمام الجماهير الراغبة في التعليم، وأباح الدرس الفلسفة للجميع، بالرغم من معارضة بيروقراطية الفلاسفة النبلاء آنذاك.

لا يمكن للفلسفة أن تبقى حكراً بعد اليوم على النخبة المتعلمة فقط. إنّ وظيفة الفلسفة الحقّة، تبصير الناس بالحق، وتهذيبهم بالعلم والأخلاق الفاضلة. يجب أن لا تبقى الكلمة التي تحمل بذور الحكمة، أسيرة اللفائف والمداد والمدونات. الحوار هو أصلح المناهج لنشر الكلمة الحرّة والمؤثرة في النفوس التي تتلقاها.

والكلمة هي الحوار بين العقول، والمقابلة بين النفوس لتوليد الحق من نفوس الرجال. والفلسفة منذ ذالك اليوم هي مفرز إجتماعي، حواري، وجدلي بنّاء.

١٠- أفلاطون، محاكمة سقراط، ص٢٠.

كان سقراط: ((سوفسطائياً أصيلاً... ولا غرو فقد كان تلميذاً لبروتوغراس وبروديقيوس، وعلى الأخص لجورجورياس... ومن الطريف أنّه كان يُطلق لفظ السوفسطائي على سقراط وتلامذته ومنهم أفلاطون))[١١].

لقد ولِد سقراط فقيراً، وفي أدنى مراتب السلم الإجتماعي، فلم يكن نبيلاً كأفلاطون. والده كان نحاتاً، ووالدته كانت قابلة للنساء، أما هو فلم يكن إلّا جندياً مخلصاً لوطنه، محبّاً للفقراء من أبناء شعبه. وقد عقد العزم منذ البدء أن يتلقى الدرس الفلسفي من مناشئه الأصلية.

ولا بد أن الفلسفة إختمرت في ذهنه بواسطة تلك الأسئلة المضمرة التي ظلت عالقة في خلده منذ طفولته، وهو يرى ذلك التمايز الطبقي الذي يجعل من بعض أبناء وطنه نبلاء ومكرمين، كسالى ومترفين يتسكعون في الأندية والخمّارات، ينالون كلّ ما يرغبون به من ترف ورغد عيش، دون أن يبذلوا جهداً يذكر، وبعد كلّ تلك العطالة الأخلاقية والفكرية، والإسترخاء، يلاحظ أن حكومات وطنه، لا تلبث حتى تكرّم هؤلاء وتعتني بهم، وتخصّهم بكلّ الخيرات والمناصب السيادية.

كان يتسأل من أين جاء ذلك التمايز الهرمي الذي يجعل من بعض الأفراد آلهة، ويسحق ويهمش أخرين، يسحقهم حتى النهاية دون أدنى رحمة؟

قدرهُ – إذن– أن يكون سوفسطائياً، متجولاً في الأسواق يعرض اراءَهُ وإحتجاجته المكرّسة بالفلسفة، يلتصق بالفقراء والمعوزين، معزياً لهم.

سقراط الحكيم الذي إنتخبته الآلهة بنداءاتها الصادقة في معبد دلفي ليكون رسول الحكمة والكلمة الصادقة إلى أبناء وطنه جميعاً، يسير حافي القدمين في صقيع أثينا البارد والمثلج؛ في ذلك عزاء وأي عزاء يؤاسي به الفقراء الذين لايجدون قوت يومهم. وفي ذلك صرخة إحتجاج ضد أولئك المترفين والمتخمين بلذائذ الجسد السدومية.

ذلك ما يعطي لنا تفسيراً مقنعاً، لماذا أراد سقراط أن يتعرّض لزيف أولئك الأوغاد الذين يدعون إمتلاك الحقيقة، أولئك النبلاء الذين إنتفخت أوداجهم غروراً بأنسابهم وطبقاتهم وأحسابهم ومراكزهم الإجتماعية، وبما يحملون على صدورهم من تكريم إجتماعي. لكن سقراط أصرّ أن يخلع عنهم أقنعة الكذب والزيف، ويسلخ عن طبائعهم الدنيئة جلود الوهم الذي تاهوا به فخراً، وحسبوه شرفاً لهم دون الأخرين.

لقد أدرك سقراط –تماماً– أنّ الشهوانيين والمترفين لايمكن أن ينالوا طعم الحقيقة، أو يبلغوا رتبة الحب النبيل؛ ذلك أنّهم ليسوا نبلاء كما يدعون، بل هم عبيد لشهوة الجسد السدومي النازف. لا يمكن لمن استنزف قواه الأخلاقية والفكرية، أن يبلغ رتبة الحاسة النبيلة، التي تتجرّد بعاطفة الحب النبيلة عن ممازجة الشهوة، ومخالطة الرغبة المحرّمة.

وبحكم إنتماءاتهم الطبقية المسرفة فمن الراجح أن يكونوا قد اساؤوا فهم الحب أو تفسيره، تفسيراً سوياً.

١١– الأهواني، أفلاطون، ص٢٦.

من العسير جداً إنْ لم يكن مستحيلاً، أن نستخلص حقيقة سقراط السوفسطائي وأرائه، في المحاورات الإفلاطونية. فسقراط الحقيقي لم يدوّن حرفاً واحداً، ولم يكن مهتماً أصلاً بتدوين أرائه، ولم يترك أثراً يعتدّ به لتمييز أثار هويته الأصلية؛ وهذا مهدَ السبيل أمام تلامذته أن يكتبوا عنه أو يخلدوه بما تشتهي أنفسهم.

من الناحية العملية من غير الممكن أن نفرد شخصية وأراء سقراط عن أراء وفلسفة أفلاطون؛ هذا أمر عسير جدّا أو قلْ مستحيلاً. غير أنّ الكثير من الباحثين قد تلمسوا أكثر من دليل أو قرينة، أنّ أمراً ما، في فلسفة سقراط وأرائه قد تمّ تغيره أوتزيفه على يد أفلاطون.

فأولاً: إنّ شخصية سقراط وبيئته الإجتماعية التي نشأ فيها وتربّى، تختلف إختلافاً جذرياً عن البيئة الإجتماعية التي نشأ وترعرع فيها أفلاطون؛ هذا بالضرورة يؤدي إلى إختلاف الرؤى والأهداف والغايات لدي الرجلين؛ فكلٌ منهما ينتمي إلى طبقة إجتماعية، ووسط إجتماعي مختلف ومتناقض. فلا بد أن تكون الأولويات مختلفة أيضاً إن لم تكن متناقضة.

ثانياً: إن سقراط لم يكن مؤمناً بتدوين وكتابة مقالاته الفلسفية، بل كان يلقي ذلك شفاهاً على تلامذته، وما دوّنه أفلاطون في محاوراته عن سقراط، لم يكن إلّا تأليفاً أدبياً فنياً لاحقاً، إجتهد فيه بفكره وميوله وجهده ورغبته وذاكرته، حتى لا يشتبه أحدٌ اليوم أنّ ماورد عن سقراط في المحاورات، ليست أقوالاً لسقراط، ولا أراءً له، بل كانت نتاجاً إفلاطونياً، جملةً وتفصيلاً.

فسقراط في تلك المحاورات ليس أكثر من دمية يحركها أفلاطون من وراء الستار، ويضع على لسانها الأحاديث التي تسعفه بها الذاكرة، وحتى لو فرضنا أنّها نصوص لسقراط حقيقية، فأين نحن من تأويلها، أوتفسيرها، أو تشذيبها...؟. وهذا ما حصل في تراث أكثر العظماء، مراراً وتكراراً، سواء وضعوا كتباً خاصة بهم أو لم يضعوا.

ثالثاً: إختلاف الصور والأراء التي وصلتنا عن سقراط وتباينها، تبايناً كبيراً بمقدار الإختلاف والتباين بين تلامذة سقراط أنفسهم، الذين كتبوا في أرائه أو فلسفته، أو إستلهموا تأثيرات سيرته.

فالمذهب الذي وضعه إنتستنيس الإثيني أو الكلبي (ت٣٦٦ ق. م)، بوحي مباشر من سقراط تختلف إختلافاً جذرياً عمّا تحدّث به أفلاطون.

فسقراط كما إستوحى سيرته تلميذه إنتستنيس، يبدو زاهداً في الدنيا، متشرّداً، فقيراً مدقعاً، لا رغبة له في متع الدنيا، يعيش كفافاً، معرضاً عن مخالطة السفهاء، فضلاً عن محادثتهم.

وكان إنتستنيس قد: ((إنضم إلى حلقة سقراط، فأخذ عنه إكبار حياة الفضيلة وعدم المبالاة بالألم. وكانت فلسفته الخلقية تقوم على تقرير أن الفضيلة قابلة للتعلّم والتعليم، وأنّها كافية في تبليغ صاحبها السعادة، لأن من يمتلكها لايحتاج إلى شيء من خارج))[١٢].

ومن ناحية أخرى نجد أكثر الكلبيين: ((رفضوا اقتناء بيوت أو أي مكان للسكن، وأخذوا يتجولون أشبه بالأفاقين والشحاذين...))[١٣].

١٢- ماجد فخري، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار العلم، ط١، بيروت / لبنان، ١٩٩١، ص ١٥٢.

١٣- وولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ١٩٨٤، ص ١٣٨.

فكرة الحب عند أفلاطون:

لم يكن أفلاطون مشرقاً وهو يطرح علاقة السبيادس ذلك الفتى الوسيم بسقراط. كان إسلوبه غامضاً، معتماً، خجولاً. لم نعرف ماذا يريد أن يقول أفلاطون. كما أننا لا نستطيع أن نفسّر تلك العلاقة الشاذة قبل أن نبذل جهداً تأويلياً كبيراً –كما فعل أفلاطون، لكن ذلك لن يكون إلّا تلميعاً أجوفاً، لنصّ تفوح منه رائحة الغلمة.

يقول الدكتور علي الوردي: ((الظاهر أن أفلاطون أراد أن يستغل إسم سقراط في سبيل مصلحته الخاصة. وربّما حاول أن يتخذ مقتل سقراط ذريعة للقضاء على السفسطة والديمقراطية اللتين كانتا من ألدّ أعدائه))[١٤]. ولكن ما علاقة ذلك بفكرة الحب، لماذا حاول أفلاطون تزييف تلك الفكرة، ماهي مصلحته من وراء ذلك؟.

يقول الوردي: ((كان أفلاطون مصاباً بالإنحراف الجنسي... لم يتزوج طيلة حياته... ويخيّل لي أنّ سقراط كان يكافح الإنحراف الجنسي بين قومه))[١٥].

الفرق بين الرجلين –حسب إعتقاد الوردي– فرقاً بين الطبيب الذي يسعى لتشخيص ومعالجة المرض، وبين المريض الذي يجد أعذاراً لمرضه، ويبحث عن تبريرات واهية لكي يستمر بعاداته السيئة والمختلّة.

للنظر حقيقة الحب الذي يدعونا إليه أفلاطون، وكيف ينتكس أفلاطون على عقبيه ليرتدّ إلى بهيميته السدومية النازفة. نصغي إليه وهو يقول: ((لا يكون كلّ نوع من أنواع المحبّة، ولاكلّ حبّ نبيلاً، بل ذلك الذي يلهم الرجال كي يحبوا بنبل فقط. إنّ الحبّ الذي يكون من ذريّة أفروديت... هو مشاع بالضرورة، ويحرّك الأحقر من الرجال، فيتخطى حبّهم، حبّ النساء إلى حبّ الشباب، ويغرقون بالجسد بدلاً من الروح...))[١٦].

فأفلاطون كان مريضاً، وجوهر مرضه، يرتدّ إلى طبيعة طبقته الإجتماعية المتفسّخة التي تمارس الرذال والموبقات، كأنّها طبائع إعتيادية. وقد أخذ أفلاطون على عاتقة مسؤولية توفير غطاء نظري وفلسفي، لإنحلال سدومي مزمن، إستغل فيه فلسفة سقراط ذاتها.

فأفلاطون كان المنظّر الأهم لغريزة الإيروس السدومي النازف، والذي هو خاصية شبه ملازمة لطبقة النبلاء والأثرياء المترفين، أو لمن يحلّ محلهم من الشهوانيين والعبثيين.

يتحدّث افلاطون في محاورة سيمبوزيوم أو المأدبة، عن الحب، بعد إعادة توزيع النص توزيعاً سمفونياً ماهراً، عن طريق تحفيزه وممازجته بالمطلق الفيثاغوري– الأورفي.

يقول على لسان سقراط: ((إنّ دوتيميا كانت معلمتي في الحب... برهنت لي أنّ الحبّ لم يكن جميلاً ولا خيّراً، بل وسطاً بين ذلك. وقالت لي أنّ الحبّ هو نفس عظيمة، وهو توسط بين الإلهي والفاني... يربط العالم كلّه معاً... إنّ الحبّ فيلسوفٌ أو محب للحكمة. وكونه محباً للحكمة فإنّه وسط بين العالم

١٤– د. علي الوردي، مهزلة العقل البشري، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٩٥٥م، ص ٢٠٧.
١٥– المصدر نفسه، ص٢١٠ – ٢١١.
١٦– أفلاطون، (سيمبوزيوم)، ص١١١.

والجاهل... فإنني سأعلمك بأنّ الهدف الماثل... هو الولاء في الجمال، سواء أكان هذا الجمال في الروح أو في الجسد))[١٧].

دوتيما الملاك التي ألهمت سقراط فن الحب أخبرته أنّ الولادة تبدأ في الجمال. أي في الرغبة في إمتلاك الجسد الجميل والإستحواذ عليه. لكنّ أفلاطون يحاول بمعجزة أورفية أن لايتوقف عند الرغبة في الجسد، بل لابد لنا من تجاوز عقبة الجسد، بأجنحة إستعارها من سقراط. هناك في الأعالي يمكن أن نلتقي بسرّ الجمال الذي لا يفنى.

إنّ أفلاطون يحاول أن يمزج بين قضيتين مختلفتين مزجاً شعرياً، فالولاء للجمال، حسب إعتقاده، يمكن أن يكون ولاءً لجمال الجسد، أو جمال الروح، على حدّ سواء، لا فرق بينهما، مع إنّهما قضيتان متباعدتان، كما لا يخفى ذلك. ليس بالضرورة أن يكون جمال الروح، جمال للجسد، ولا يصح العكس أيضاً.

جمال الجسد أمرٌ يتعلّق بالحواس، وكثيراً ما يكون فخّاً تنصبه الطبيعة لنا لحكمة الولادة والبقاء. ولا نجد له علاقة بجمال الروح أو سموها.

من المستبعد أن ينسجم ذلك الإعتقاد مع المبدأ الفيثاغوري، والذي هو صميم في الإعتقاد السقراطي أساساً.

علينا أن ندقق النظر فيما يقول أفلاطون، فإنّه كثيراً ما يستخدم لغة شعريّة مرنّة وخصبة، تذيب التناقضات، وتقرّب ماهو بعيد. يقول أفلاطون: ((إنّ الذي يصعد من هذه الأشياء الأرضية تحت تأثير الحب الحقيقي، يبدأ من الجمال الأرضي ويرتفع لأجل الجمال الأخر... ومن كلّ الأشكال الجسدية الجميلة يرتقي إلى الممارسات الجميلة... لكن ماذا إذا كان لدى الإنسان عيون لترى الجمال الحقيقي فسيرى الجمال الإلهي... الجمال اللّامدنس بالتلوث الجسدي))[١٨].

يعتقد أفلاطون أنّه من الممكن بواسطة الجدل الصاعد أن نتدرج من الجمال الجسدي وصولاً إلى الجمال الإلهي.

واضح لكلّ عاقل أنّ رؤية أفلاطون في الحب لا يمكن أن تكون سليمة أو صائبة، إنّه فقط شاعر، يموّه في الألفاظ، ويخيّل في العبارات، لكنّه في كلّ الأحوال لا يتحمّل مسؤولية ما يقول.

فالقضية هنا لا تتعلق بجدل فلسفي صاعد أو نازل، بل هي تتعلق بوجود مشكلة عملية لها صلة بنتائج عشق الجسد ذاته.

الجسد لا بد أن يقودنا إلى مركز جاذبيته، ويسقطنا في شباك قوّة شدّه، عاجلاً كان ذلك أم أجلاً، ليس للجسد الأرضي من وظيفة أخرى غير كثافة الشدّ والجذب والولادة.

أفلاطون يخادع ذاته، ويرتدي قناع سقراط. إنّه يريد أن يمضي قدماً بشفاعة الجسد ووساطته ليقف عند شفق الحب الخالد.

١٧- أفلاطون، المحاورات، مجلد ٤، ص١١٦.

١٨- أفلاطون، المحاورات (سيمبوزيوم)، ص١١٩وايضاامام عبد الفتاح امام افلاطون والمراة،مكتبة مدبولي،ط٢،سنة ١٩٩٦، ص٧٥..

واضح تماماً –بالنسبة لنا– أننا أمام طريقين لا يمكن أن يستمرا معاً، إذا ما رغبنا بولوج العتبة العذريّة للحب. وهنا لا بد لنا من قطع صلتنا بالجسد الإرضي أو الشهواني، قطيعةً لا صلة بعدها قط.

بتلك القطيعة العذرية –إن صحّ التعبير– نكون بلغنا الغاية التي نجد عندها منهج سقراط الحقيقي.

سقراط يبدأ –إذن– بنفي الجسد الإرضي، وجذم الصلة به، وخلع قيود عبوديته الشهوانية أولاً وثانياً وثالثاً؛ إذ لا توجد أمامنا أيّ فرصة مهما كانت صغيرة، كي تسمو بعدها نفوسنا، وتتعلق بأهداب الشفق الإلهي، طالما نحن متعلقون بكثافة الجسد الإرضي، منقادون لإغوائته السدومية.

ثمة فلسفتان متنازعتان ومتناقضتان لم يفلح أفلاطون في ردم الهوّة الغائرة بينهما، وهما ينتميان لعاطفتين متغايرتين إحدهما تنزع نزوعاً صوفياً للمطلق، والأخرى تتثاقل إلى مركزية الجسد. إننا مهما بذلنا من جهد لتعقيل كثافة الآيروس، وحملناه على الإعتدال –كما يفترض أفلاطون– لن نجني من وراء ذلك غير خيبة الأمل. إذ لا توجد حدود معترف بها لمعيار الإعتدال، إذ ليس للحب معيار للإعتدال، فهو ليس بالقضية الكمية؛ بالتالي فنحن في جميع الأحوال منساقون وراء طبائعنا، التي تميل إلى الإنحدار نحو مراكز التثاقل، وهذا أمرٌ معقول تماماً.

لن تكون هناك أيّ حدود للإعتدال أو الوسطية في أفعال الطبيعة، سنخضع فقط لميولنا الغرائزية، ولن نتوقف حتى نكتفي أو نمتليء. ننحدر مع تجوعنا حتى يسكت عنا الجوع، ويرتوي العطش.

ولن يكون هناك أيّ فرصة سانحة لكي نتسامى، أو ننعتق من قبضة ميولنا الجسدية... هناك سلسلة دوافع وإحتياجات ورغبات، تنجذب لإشباعتها.

في الطبيعة توق ورغبة جامحة، وإمتلاك وإنجذاب وتكاثر في الجسد، وهكذا تتناسخ الشهوة في داخلنا دون إنقطاع، تتكرر دون نهاية. ومن المستبعد –تماماً– عبور برزخ الجسد، عبر ممارسات الجسد نفسه– كما يتوهم أفلاطون – لا بد أن تكون لدينا إرادة لإقحام القطيعة إلى صلب الطبيعة.

هناك هوّة عميقة وغائرة في كنه الوجود. تلك الهوّة السحيقة لا يمكن تجاوزها بواسطة التلوث الجسدي –كما يطلق عليه أفلاطون، بل لا بد من زج إرادة اللوغوس، أو إرادة الحرمان أو القطيعة، في صلب الرغبة.

من العبث أن يتسامى الحب إلى شفق عذري بدون تدخل اللوغوس الإلهي الذي يصادر متعة الجسد، ويمنع الرغبة أن تتمادى فيه.

ومن المستحيل إكتشاف الذات أو التعرُّف على الماهيّة المتعالية للحب دون وجود المطلق ذاته، ودون أن ندخل في علاقة باللا محدد أو اللّازماني. وقضية إكتشاف الذات وتعلقها بمبدأ الحبّ المتسامي، ليست قضية ماورائية، بل هي قضية كيف تتحقق الذات في الوجود؟. كيف تعبّر عن نفسها؟. كيف تقاوم الشرّ؟. كيف تنتصر على الشهوّة؟. كيف تتنقّى وتتطهّر من أثام الجسد، وأرجاس الشهوة؟.

الخاتمة:

** من العسير بمكان أن نميّز بين شخصية وفكر سقراط عن فكر وشخصيّة أفلاطون. فسقراط في تواريخ الفلسفة كلّها هو ما نعثر عليه في المحاورات كتبها أفلاطون. ومن المستحيل تقريباً أن نقف على الحدود الفاصلة بين الفيلسوفين.

** تكاد تكون شخصية سقراط وفلسفته هي ذاته شخصية أفلاطون وفلسفته، بالرغم من أننا واثقون بوجود فوارق فاصلة وحاسمة بين الفيلسوفين؛ وذلك بحكم إختلافهما الإجتماعي والطبقي. فأفلاطون إرستقراطي، نبيل، مترف وغني، لا يعبأ بالفقراء والجماهير المسحوقة من أبناء وطنه، وهو إضافة لذلك يحتقر العبيد والمسحوقين. وبالضد من ذلك، فإنّ سقراط ينحدر من طبقة إجتماعية بائسة وفقيرة، وهو قريب جدّا في فكره وأماله وتطلعاته من أمال الفقراء والمسحوقين والمهمشين.

** لم يكن أفلاطون يؤمن بالعشق الذي يربط الرجل بالمرأة، ويعتبره عشقاً للعبيد والعامة. وهو يكنّ أشدّ الولاء والإخلاص للحبّ الذي يقع بين رجل وأخر من جنسه. وهنا يجد أفلاطون ضالته في عشق يبدو أنّه سمة ملازمة لآثام طبقته الإجتماعية المترفة والمتعالية. ونحن نجد سقراط يمارس حياته الإجتماعية الطبيعية في بيت وزوجة وبنين. وسقراط ليس من دعاة الحبّ السدومي، بل لم يكن من دعاة حبّ وعشق الجسد أصلاً.

** موضوع الحبّ عند أفلاطون يبدأ بالحواس، وينهض من عشق الجسد الجميل، ثمّ يتدرج بمنهج جدلي صاعد حتى يرتقي شرفة الحب العقلي والروحي ينصحنا. والحب عند أفلاطون متعة حسيّة وجسدية، ثمّ بعد أن تمتلئ ينصحنا أفلاطون أن نعتدل ونقتصد، ونتطلع للحب الحقيقي الذي في الأعالي حيث يبقى الحبّ خالداً هناك.

** يرى سقراط أن الحب الحقيقي لا يكون حقيقياً خالصاً دون ألم ومعاناة وكفاح. ودون أن نمتلك إرادة وقوّة في حجب الشهوات وتطهير الحواس من عوالق الجسد، لا يمكن لنا أن نرى ضياء الشفق، أو أن نتذوق طعم العشق العذري أو الإلهي، الذي يصبو إليه سقراط بواسطة منهج القطيعة الكليّة مع الرغبة في الجسد.

لا فرصة للحب الإلهي دون أن تكون هناك قطيعة مع الرغبة في الجسد.

المصادر والمراجع

١. د. مصطفى غالب، فيثاغورس، مكتبة الهلال، بيروت، ١٩٨٧ م.
٢. د. أميرة حلمي مطر، الفلسفة اليونانية، تاريخها ومشكلاتها، دار قباء للطباعة والنشر، القاهرة، ١٩٩٨ م.
٣. أفلاطون، محاورات أفلاطون، محاكمة سقراط، ترجمها عن النص اليوناني، د. عزّت قرني، دارقباء للطباعة والنشر، ط٢، القاهرة، ٢٠٠١ م.
٤. أفلاطون، المحاورات، فيلبوس.
٥. د. مصطفى سامي النشار، تاريخ الفلسفة اليونانية من منظور شرقي، ج١، دارقباء للطباعة والنشر، القاهرة أ ١٩٩٨ م.
٦. د. أحمد فؤاد الأهواني، أفلاطون، دار المعارف، ط٤، القاهرة.
٧. ماجد فخري، تاريخ الفلسفة اليونانية، دار العلم، ط١، بيروت / لبنان، ١٩٩١.
٨. وولتر ستيس، تاريخ الفلسفة اليونانية، ترجمة: مجاهد عبد المنعم، دار الثقافة للنشر، القاهرة، ١٩٨٤.

٩. د. علي الوردي، مهزلة العقل البشري، مطبعة الرابطة، بغداد، ١٩٥٥م.
١٠. امام عبد الفتاح امام افلاطون والمراة،مكتبة مدبولي،ط٢،سنة ١٩٩٦.